مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

سؤال القومية في الفكر العربي المعاصر ورهانات الحاضر

The Question of Nationalism in Contemporary Arab Thought and Present Challenges

د.نصيرة بوطغان NSSERA BOUTAGHANE .D * nasserasafo@yahoo.com	فلسفة عربية إسلامية	جامعة سطيف2/ الجزائر
DOI : 10.46315/1714-013-002-002		ORCID: /

الإرسال: 2024/02/23 **القبول**: 2024/04/21 **النشر**: 2024/06/16

**

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على طبيعة الفكر القومي في الفكر العربي المعاصر وأهم الأسئلة التي يطرحها والتحديات الراهنة، ونحن نشهد عودة الفكر القومي وبقوة في ظل الأحداث العالمية اليوم نتيجة الحروب والاضطرابات والصراعات التي صارت تدار باسم الهويات والقوميات الكلاسيكية، والفكر القومي في الفكر العربي يمثل تيارًا فكريًا هامًا يركز على إشكالات الثقافة والهوية والوحدة الوطنية في عالم عربي جد متنوع. ويشمل هذا الفكر عدة عناصر تاريخية وثقافية، وقد تطور على مر العصور بتأثير الأحداث والتحولات السياسية والاقتصادية والتقنية. وكان حلم الفكر القومي تحقيق الوحدة والاستقلال الوطني، لهذا عمل على تعزيز عناصر الهوية الوطنية من دين ولغة. ليمكن المجتمعات العربية من مواجهة التحديات الأنطولوجية التي تهدد الهويات العربية في ظل العولمة وما تفرضه من قيم ورؤى في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والقيمية، وهذه الدراسة تستدعي نصوص ساطع الحصري للتعامل مع مختلف الإشكالات الابستيمولوجية في الفترة الراهنة. باعتماد المقاربة التحليلية النقدية التي تضفي إلى ضرورة إعادة الاستثمار في أطروحة القومية.

كلمات مفتاحية: القومية؛ الفكر العربي؛ الهوية؛ الثقافة؛ الاستقلال.

Abstract:

This study explores contemporary Arab nationalist thought, delving into its key questions and current challenges. The resurgence of nationalist thought is evident today, fueled by global events like wars and conflicts framed around identities and classical nationalities. Arab nationalist thought is a significant intellectual trend, focusing on cultural, identity, and national unity challenges in the diverse Arab world.The thought encompasses historical and cultural elements shaped by political, economic, and technological events over centuries. Nationalist aspirations aim for unity and independence, reinforcing national identity elements like religion and language to confront ontological challenges posed by globalization. The study, utilizing the works of contemporary thinkers, addresses epistemological challenges through a critical analytical approach, emphasizing the need to reassess nationalist ideas. It underscores the importance of addressing varied epistemological challenges, particularly amidst globalization's impact on economic, political, and moral realms.

Keywords : Nationalism; Arab Thought; Identity; Culture; Independence.

* - الباحث المُرسل: nasserasafo@yahoo.com

مقدمة:

ظلت المجتمعات العربية لفترة زمنية طويلة تزيد على قرن من الزمان مسرحا لزخم كبير من التيارات والأفكار والإيديولوجيات التي كانت تموج بها الحضارة الغربية، وكان الهدف من بروز هذه التيارات في البلاد العربية محاولة إيجاد حل لمعضلة التخلف وما انجر عنها من تبعات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية وفكرية، ويعد التيار القومي أحد أبرز التيارات التي فرضت نفسها بقوة، ولم يكن هذا التيار على غرار التيارات الأخرى يسعى إلى ترجمة النصوص الغربية والاقتباس منها، بقدر ما كان يهدف إلى الدفاع عن النفس وتحقيق الكيان العربي، ولعل نصوص ساطح الحصري أقدر على تمثل هذا التيار، بكونه تميز بقدرته على ممارسة النقد الابستيمولوجي على بنية الفكر العربي المعاصر، لهذا الحقل المعرفي الذي يتحرك فيه هذا المقال هو الابستيمولوجيا في صورتها النقدية، أما الإشكال فيتعلق: بأهم المبادئ التي شكلت رؤية هذا الاتجاه؟

وكيف يمكن تبرير عودة هذا التيار إلى واجهة الأحداث الفكرية؟ وهل الصراعات الهوياتية تدار في أفق القومية وعناصرها اليوم؟

وللإمساك بهذه الإشكالية والعناصر المشكلة لها سننطلق من فرضية: أن تحليل الصراعات والاضطرابات في أفق القومية وعناصرها الهوياتية يمكننا من فهم حقيقة ما يجري اليوم على مستوى العلاقات الدولية.

وسنعتمد على المنهج التحليلي النقدي بكونه يستجيب لطبيعة الإشكال المراد معالجته.

1- في مفهوم القومية:

القومية كلمة مشتقة من "القوم" وهي تعبير عن وجود جماعة من الناس يتكلمون لغة واحدة وينحدرون غالبا من أصل واحد كالعرب والفرس والترك (زرزور، م، 1999، 43). وقد اعتبرها عمر فروخ في كتابه: "تجديد التاريخ" بكونها: "العصبية الجنسية، وهي شعور جماعة من الناس بأنهم ينتمون إلى أصل واحد، ودليلهم على ذلك أنهم يتكلمون لغة واحدة ويشتركون في تراث واحد، ثم يتجه تاريخهم اتجاها واحدا جامعا، ومع أن في القومية عناصر أخرى كالدين (الرابط الروحي) والتنظيم الاجتماعي والتنظيم السياسي، فإن معظم الدعاة إلى القومية في القرن الماضي والقرن الحالي لا يعيرون أمثال هذه العناصر وخصوصا عنصر الدين اهتماما وافيا" (عمر، ف، 1989، 364).

وتصبح القومية بهذا المعنى، مفهوم يشير إلى التكتل والتماسك من أجل تحقيق الكيان القومي ينظر إليها مؤرخو العرب على أنها من مستحدثات العصر، "تأصلت جذورها منذ أحداث الثورة الفرنسية وتبلورت ملامحها في البيئة الأوروبية، ومنها انتشرت إلى أقطار ومجتمعات أخرى من العالم فيما بعد"(Gooch. C.P,1931,217)، ونكتفي هنا بالقول أن دعاة القومية على وجه

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الإجمال، أغفلوا دور الدين والعقيدة الدينية في قيام الحضارات ونشوء الأمم والقوميات، لما أغفلوا دوره في الربط بين أفراد جماعة أو جنس من الناس، على الرغم من العلاقة الخاصة بين العروبة والإسلام (زرزور، 1999).

2- في نشأة الفكر القومي: على غرار التيارات الأخرى كانت نشأة القومية في البلاد العربية استجابة لتحديات معينة كان أهمها تفكك الإمبراطورية العثمانية وضعفها، إذ لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية أوطانها وشعوبها، مما فتح المجال على مصراعيه نحو حركات وتيارات وتنظيمات، تدعوا إلى الانفصال عن الرجل المريض، بالإضافة "إلى تأثر العرب بالأفكار الجديدة الصادرة عن الغرب (القومية، الليبرالية، العلانية ...) ثم التغلغل السياسي الاستعماري الأوروبي السريع في الوطن العربي والذي خلق رد فعل عنيف في الشعور القومي بالخوف والنقمة إزاء الغزاة الجدد" (عليوي، ه، 2000، 18).

دون أن ننسى الدور الذي قام به رواد النهضة والإصلاح، في التعجيل بظهور الشعور والوعي القومي العربي، من أمثال محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، من الذين كانوا متأثرين بالمبادئ والثورات الإسلامية وبالعربية والأمجاد العربية، فكانت أفكارهم تتجه بقوة نحو تمجيد القومية، والعروبة، فعلى سبيل المثال يقول جمال الدين الأفغاني: "إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنان: وحدة اللغة ووحدة الدين، وحدة اللغة هي الأساس الذي تقوم عليه الجنسية القومية، واللغة أكثر ثباتا وأكثر دوما من الدين" (الحصري، س، 1959، 255)، ويعتبر عبد الرحمان الكواكبي أقوى الأصوات المعبرة عن الشعور القومي، بل إن دعواته كانت صريحة نحو وحدة عربية قائمة على المقومات العربية، وأثرت كتاباته خاصة كتاب "طبائع الاستبداد" لاحقا في تنامي الفكر القومي، سواء لدى المثقفين العرب أو القادة والضباط والحكام العرب.

3- جذور القومية: إذا كانت كتب تاريخ كثيرة تتفق في القول أن الحركة القومية في البلاد العربية قد نشأت لأول مرة في صفوف العرب المسيحيين، الأمر الذي يمكن إقصاء الدين من التوجه العام لهذا التيار، فهؤلاء العرب المسيحيون، كانوا سيشكلون على كثرتهم أقلية مقارنة بالعرب المسلمين، فكانوا يشعرون على الدوام باغترابهم عن الدولة العثمانية وعن الوطن العربي، على الرغم من الامتيازات الممنوحة لهم من طرف الإمبراطورية، فيقول جورج أنطونيوس: "إن قصة الحركة القومية بدأت في بلاد الشام سنة 1847، بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت، في ظل رعاية أمريكية" (أنطونيوس، ج، 1999، 71).

ويعتقد ساطع الحصري أنه: "إذا كانت فكرة القومية العربية في العصر الحديث هي ثمرة جهود العرب والمسلمين والمسيحيين فإن المسيحيين العرب كانوا يشعرون بالبعد الكبير بينهم وبين الدولة العثمانية، لافتقاد الرابطة الدينية وشعورهم بأنهم أدنى درجة من غيرهم، وكان أبناؤهم بعيدين

عن المدارس الحكومية، وبشكل عام لم يكونوا مرتبطين بالدولة ارتباطا قلبيا، وإنما كانوا يخضعون لحكمها اضطرارا" (الحصري، س، 1951، 122)، أما ألبرت حوراني فيرى أن القومية العربية الصريحة كحركة لها أهميتها، وأهدافها السياسية لم تظهر إلا حوالي القرن التاسع عشر، لكن ليس مع المسيحيين العرب، وإنما مع العرب المسلمين، ممكن كانوا يتوقون إلى مجدهم التليد، فالإسلام ظهر في بلاد العرب، ونزل بلغة عربية، والعرب هم صانعوا حضارة الإسلام الأولى لذا ينبغي أن تعود خلافة الأمة الإسلامية إلى بلاد العرب، وأشار إلى بعض الأسر الدينية العربية المرموقة في المدن الكبرى، والتي كانت تعتز بأصلها العربي وباللغة العربية، ثم أشار كذلك إلى الدور الخاص الذي لعبته الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية والتي كانت تحي في أذهان المسلمين ذكرى العهد العربي من خلال دعوتهم إلى العودة إلى نقاوة الإسلام الأولى، يقول ألبرت حوراني: "وقد يكون العامل الأكبر الذي دفع بالعرب في هذا الاتجاه مطالبته الأتراك بالخلافة رسميا حوالي منتصف القرن التاسع عشر، وهناك أدلة تشير إلى أن هذه المطالبة كانت تلاقي في كل مرة ظهرت فيها موقفا سلبيا لدى العرب الذين ورثوا تراث الثقافة الإسلامية، ... إن هؤلاء العرب لا يمكنهم أن يفهموا كيف يكون سلطان الأتراك الأغراب القادمين من بلاد التتار خليفة للنبي العربي القريشي محمد" (حوراني، ل، 1962، 318).

وسواء كانت مبررات الدعوة إلى الوحدة القومية، ذات طابع عربي مسيحي، أم عربي إسلامي، فإن العرب استشعروا في أنفسهم أنه آن الأوان للاستقلال عن الرجل المريض، وإقامة كيان خاص، وبمقومات خاصة، فعهد الفكر العربي القومي ولد في نفوس مثقفية وقادته، ورجالات دينه إحساس بوجود جسم عربي له ملامحه المستقلة وذكرياته المشتركة، ولكن العيش تحت حكم كيان لا ينتمي إليه.

وعودة إلى الخلاف السابق بشأن البدايات الأولى لتبلور الوعي القومي، فالذي رصدناه أن هناك من القراءات من تعتبر محاولة محمد علي باشا عام 1830 ضم الشام والحجاز إلى مصر، ما يدخل في إطار توحيد الأمة، وأصبح واضحا أن هذه الوحدة تحمل سمات "قومية" وتعمل على خلق وعي عربي شمولي (رؤوف، ع، 1986، 106)، وفي هذه الحقبة تم استخدام مصطلح "القومية العربية" لأول مرة من طرف إبراهيم باشا (ابن محمد علي باشا) حينما ربطه بمسألة إرجاع وطن العرب للعرب، وإشراكهم في جميع المناصب" (حراز، م، 1970، 234)، في حين يؤكد بعض الدارسين أن المصطلح في المغرب: استخدمه حمدان خوجة في أوائل عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر عندما دعا إلى الاعتراف بالقومية العربية في الجزائر (وادي، خ، 1982، 43).

ومن القراءات من تعتبر أن أول صوت ظهر لحركة القومية العربية كان في اجتماع سري عقده بعض أعضاء "الجمعية العلمية السورية" المسيحيين سنة 1847، وكان أحد الأعضاء وهو إبراهيم اليازجي، ابن ناصيف العظم الذي كان قد نظم قصيدة اتخذت صورة النشيد الوطني، والقصيدة

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

في جوهرها، تحريض للعرض على الثورة، تغنت بأمجاد العرب (أنطونيوس، ج، 1987، 120)، أما الأعضاء المؤسسون لهذه الجمعية فكانوا: "ناصيف اليازجي (1800-1871) وبطرس البستاني (1819-1883)، (الذي أسس في 1860 مجلة الجنان وأدار شؤونها هو وعائلته، مدة ستة عشرة سنة، هذه المجلة كانت على الدوام تنتقد الحكم الفاسد والسلطان عبد الحميد، وتدعو قراءها إلى الحكم الصالح الذي لا يمكن أن يقوم إلا بفضل اشتراك الجميع وفصل الدين عن السياسة وإحياء شعور إقليمي معين" (حوراني، 1962، 324)، وفي 1875 انشأ بعض الشبان المسيحيين من حلقة البستاني، جمعية سرية صغيرة وعلقوا بين 1879-1880 مناشير على جدران بيروت تدعوا أبناء سوريا إلى الاتحاد، وتطالب بحكم ذاتي موحد، سوريا ولبنان وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية (حوراني، 328)، وفي سنة 1904 تأسست جمعية رابطة الوطن العربي، تزعمها نجيب عازوزي الذي ألف كتاب يقظة الأمة العربية يقول فيه: "إن هناك أمة عربية واحدة تضم مسيحيين ومسلمين على السواء، وبأن المشاكل الدينية التي تنشأ بين أديان مختلفة إنما هي بالحقيقة مشاكل سياسية، وكان من رأيه أن على الأمة العربية أن تستقيل على الأتراك" (حوراني، 332).

وفي 1909 تأسست الجمعية القحطانية، التي أسسها ضباط من الجيش في طليعتهم عزيز علي المصري وجمعية تركيا الفتاة في باريس 1911 أسسها طلاب سوريون، وفي عام 1912 قام عدد من العرب القاطنين في القاهرة ومعظمهم من السوريين بتأسيس حزب للتعبير عن آرائهم هو حزب اللامركزية الإدارية العثماني، "وكان يطالب أن تصبح اللغة العربية لغة رسمية وأن تستند معظم الوظائف للعرب المحليين" (حوراني، 339)، على أنه ينبغي الإشارة إلا أن هذه التنظيمات والجمعيات لم تكن ذات طابع مسيحي فقط، أو حكرا على بلاد الشام، فقد "تأسس في مصر، أول تنظيم شعبي عام 1876 عرف باسم "الحزب الوطني" الذي دعا إلى دولة عربية مستقلة وموحدة، ومن بين قادة هذا الحزب محمود سامي البارودي" (عليوي، 37) .

هذه الجمعيات كان لها تأثير مباشر في الثقافة العربية كما ساهمت في انعقاد المؤتمر العربي في باريس عام 1913 الذي لم ينجح في تحديد الصلات بين ما هو عثماني وما هو غربي، لكن الملاحظ أنه ترددت في المؤتمر إشارات إلى "أمة عثمانية" وإشارات عديدة إلى "أمة عربية" لها خصائصها ومميزاتها التي تفرقها عن الأمم الأخرى، وإلى حق هذه الأمة في الوجود السياسي وتردد أيضا تعبير "الشعب العربي"، وتأكيد مصطلح "القومية" إلى جانب مصطلح الجنسية" (عليوي، 47)، وتوجت هذه الحركات بالثورة العربية عام 1916 "حيث قامت هذه الثورة نتيجة معاناة مريرة خاضها وطنيون وقوميون مثقفون عرب ضد سياسة الأتراك العنصرية والبطش والاضطهاد وسرقة ثروة البلاد العربية، وكانت تحمل في طياتها فكرا عربيا لتصور جديد وواقع جديد ومستقبل جديد، صحيح أن الثورة انطلقت من الحجاز، لكنها لم تكن حجازية، كما حاول الفرنسيون نعتها، بل كانت عربية،

فالجمعيات العربية في دمشق هي التي وضعت ميثاق دمشق الذي كان الأساس في المفاوضات مع بريطانيا لتحقيق استقلال العرب" (عليوي، 48).

هذه الثورة قام بها العرب مدعومين من بريطانيا التي وعدتهم باحترام استقلالهم، وعروبيتهم ومقوماتهم ضمن ميثاق موقع، أما البيان الذي أصدره قادة هذه الثورة "فيذكر بدور العرب في التاريخ، وأن الخلافة في الأصل عربية وأن العرب قبلوا بالدولة العثمانية رغم اضطهادها اللغة العربية، وانتحالها منصب الخلافة ثم يوضع البيان الذل الذي يعيشه العرب، وهو بالتأكيد ذل الإسلام مستشهدا بالحديث الشريف "إذا ذلت العرب ذل الإسلام)، ويختم البيان بالتأكيد أن الطريق الصحيح لتدارك الأمر هو إعلان الاستقلال التام وقطع كل صلة بهؤلاء السفاكين، لكن الذي حدث أن هذه الثورة فشلت وفشل معها الفكر القومي العربي، في بلوغ أهدافه المنشودة ولم يحصل العرب على استقلالهم من السلطة العثمانية، بل إنهم وقعوا تحت سيطرة أخرى وهي الاستعمار الأوروبي، فقد نكثت بريطانيا بوعدها مع العرب في منحهم الاستقلال والاعتراف بالخلاف العربية، إنما الذي جرى أنه تمت تجزئة البلاد العربية وفق معاهدة سايس بيكو، وبالتالي تحول نضال الفكر القومي العربي من نضال ضد الدولة العثمانية إلى نضال ضد الاستعمار الأوروبي، مدشنا بذلك مرحلة جديدة في تاريخ القومية العربية، شهدت ظهور مفكرين آخرين، وأفكار أخرى، نذكر من بينهم ساطع الحصري، الذي سنتعرض إلى أهم ملامح الفكر القومي في كتاباته.

وعلى العموم فإن الإنصاف يدعونا إلى القول أن الفكر القومي في القرن التاسع عشر، كانت له بعض الإنجازات التي ينبغي ذكرها، منها أنه دعا إلى:

- إعادة فتح ملفات الموروث في الفكر العربي الإسلامي والنظر إليه برؤية جديدة.
- تأكيد مرونة العقل العربي في طرق التجاور والهضم والإفادة الإيجابية من كل هذا.
- قدرته على تجاوز الركود وفساد الاستقرار والثبات النسبي.
- التأكيد على الوحدة القومية العربية والهوية العربية المتميزة عن الأمم الأخرى.
- اقتران الهم السياسي بمشاكل المجتمع وأنظمة عيشه (عليوي، 52).

4- الفكر القومي عند ساطع الحصري:

أ- **الحصري سيرة وفكر**: يعد ساطع الحصري واحد من أبرز دعاة القومية في الفكر العربي المعاصر، إن لم يكن أهمهم، دافع عن فكرة القومية والوحدة العربية بشراسة، ضد كل توجه إقليمي أو طائفي، كما توحي بذلك كتاباته التي نذكر منها:

- ما هي القومية.
- آراء وأحاديث في الوطنية القومية 1951.
- دفاع عن العروبة.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

- حول الوحدة الثقافية العربية.
- آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع.

وقد سمي الحصري بفيلسوف القومية أو شيخ القوميين العرب، نظرا لأن أغلب كتبه ونشاطاته كانت حول هذه المسألة، كما ساهم في وضع فلسفة متقدمة للتعليم في كل من سوريا والعراق، ووضع إلى جانب ذلك العديد من المناهج المدرسية والجامعية، كان ساطع الحصري في بداية الأمر مرتبط بالدولة العثمانية، ومنخرطا في جمعية "الإتحاد والترقي" و"الحزب التركي الطوراني"، الذي انتهج سياسة التتريك المعروفة ضد العرب، وكان الحصري من مؤيدي هذه السياسية، لكنه سرعان ما انقلب في موقفه، ليصبح من أبرز منظري القومية العربية والداعيين إليها، وتشير سيرته إلى أنه كان ضعيفا في اللغة العربية، وذلك كان راجع إلى تكوينه وتعليمه المطول في تركيا.

في كتابه: "ما هي القومية" يسوق ساطع الحصري نماذج عديدة لدول أوروبية وغير أوروبية، في مسيرتها وصراعها مع الوحدة، بحيث يقوم بتحليل كل تجربة على حدى وفي كل مرة كان يحاول أن يربط كل العوامل التاريخية والجغرافية والاجتماعية التي تمر بها الدول في رحلة تكوينها، بنظريته وفلسفته في "القومية" كما يظهر تأثره واضحا في هذا الكتاب بالتجربة الألمانية دونا عن باقي التجارب الأخرى، وهذا إن دل على شيء إنما يدل حسب نقاده على أن الفكرة أو المشروع الذي كافح من أجله ساطع الحصري إنما فيه شيء من رواسب الفكر الأوروبي.

فبالنسبة له، فإن جل التبادلات والتحولات والتطورات التي تمر بها الدول إنما تحدث وفق مبدأ القومية، ويبرر ذلك بقوله: "إن أخصب البيئات لنشوء الفكرة القومية كانت البلاد الألمانية، كما أن أهم الأبحاث والنظريات المتعلقة بقضايا القوميات قد نشأت في ألمانيا، كما نجد أن معظم دعاة القومية وزعمائها في مختلف البلاد الأوروبية قد تلقوا أو دروس القومية من مفكري الأمة الألمانية وكتابها" (الحصري، س، 52)، فإذا كانت الماركسية قد فسرت التاريخ بردها إلى مبدأ الصراع الطبقي، وصراع القوى الإنتاجية، فإن عنصر القومية بالنسبة للحصري يمكن عده القوة الكامنة التي من شأنها أن تغير مصير الدول والشعوب، وهذا العنصر في نظره يستخف به الكثيرون، إن على مستوى الساسة أو على مستوى المفكرين، يقول: "إن الفكرة القومية تغلبت على سياسات الدول المعارضة لها وأخذت شكل تيار جارف يقتحم ويهدم كل ما يعترض سبيله من حواجز وسدود، وغيرت معالم أوروبا السياسية بتكوين الدول القومية" (الحصري، س، 20)، ثم يضيف قائلا: "إن القرن التاسع عشر كان عصر القوميات بالنسبة للشعوب الأوروبية وحدها وأما القرن العشرون فصار أو سيصير عصر القوميات بالنسبة لسائر الشعوب بأجمعها" (الحصري، س، 25).ولكن ما هي المعادلة التي يضعها ساطع الحصري في صياغة مفهومه للقوميةالعربية؟

ب- في عوامل القومية العربية: ينطلق الحصري في ذلك من خلال تمييزه بين مفهوم الأمة ومفهوم الدولة، لأن الخلط الذي يقع في أذهان الكثيرين بين هذين المفهومين يتناقض مع الصفات الجوهرية المشكلة لروح القومية، يقول على سبيل المثال: "إني أرى في كل ذلك تعقيدا لا مبرر له أبدا: إن مفهوم الأمة، يجب أن يفصل عن مفهوم الدولة فصلا تاما ... فكل أمة تكون موجودة قبل أن تتوصل إلى تكوين الدولة، كما أنها تبقى "أمة" ذات كيان خاص، ولو فقدت الدولة الخاصة بها" (الحصري، س، 34)، وهذا يعني من منظوره دائما أن العوامل التي تجعل بعض الجماعات البشرية تشعر بأنها أمة واحدة، ليست الانتماء إلى دولة واحدة، فقد تكون هناك فروقات واختلافات لا حصر لها بين المجموع البشري الذي ينتمي إلى الدولة الواحدة، إذن ما الذي يجعل الأمة أمة بهذا المفهوم؟

ترتكز القومية على عدة عوامل وعناصر هوياتية منها اللغة والدين، فكيف يمكن للغة أن تكون عامل وحدة؟

ب1- اللغة والقومية: يؤكد الحصري على دور اللغة في توحيد المختلف متخذا من التجربة الألمانية نموذجا، يقول: "لما كانت اللغة بمنزلة القلب والروح من الأمة، فإن الشعوب التي تتكلم لغة واحدة يجب أن تكون دولة واحدة" (الحصري، س، 48)، ويقول أيضا: "إن أسس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ، لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر، والمنازع والآلام والآمال، ووحدة الثقافة، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة متميزة عن الأمم الأخرى" (الحصري، س، 210). ويستشهد ساطع الحصري بالتجربة الألمانية، فبعدما قضت السياسة على وحدة الأرض والشعب والاقتصاد، وتوزع الألمان إلى دويلات متناحرة ومتباعدة، لما يقارب القرن من الزمن، صارت إرادة التوحيد لديهم أقوى من إرادة الانفصال، وعلى الرغم من التباين الذي عرفته ألمانيا إبان الانقسام في النظام الاجتماعي، والتوجهات السياسية المتناقضة، والطموحات المتضاربة إلا أن الألمان ظلوا أوفياء للغتهم، وهو السبب في رأي الحصري الذي جعل ألمانيا تتوحد من جديد، يقول: "إن الألمان بعد أن كانوا مجزئين بين عدة مئات من الدول والدويلات، وبعد أن كان كل فرد منهم يحدد وطنه، بحدود الدويلة التي ينتسب إليها صاروا يشعرون ويؤمنون بأنهم أبناء أمة واحدة بفضل اللغة ... وكذلك الدول الحديثة التي تكونت في أوروبا منذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر، فإن كلا من اليونان وبلغاريا ورومانيا وألبانيا ويوغوسلافيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا قامت على أساس اللغة" (الحصري، س، 55)، أما الإمبراطورية العثمانية والنمساوية فلم تستطيعا أن تكون أمة حقيقية لأنهما كانتا تضما شعوب مختلفة اللغات.

ب2-الدين والقومية: بحسب ساطع الحصري دور الدين مقارنة باللغة هو دور ثانوي: "لا الدين ولا الدولة ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية، كما أن الرقعة الجغرافية أيضا لا يمكن أن تعتبر من المقومات الأساسية، وإذا أردنا أن نعين عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكون روح الأمة وحياتها والتاريخ يكون ذاكرة الأمة وشعورها" (الحصري، س، 251)، لكن مع ذلك يؤكد الحصري أهمية الدين في حياة الشعوب والأفراد، ويقيم مفاضلة بين الدين الإسلامي وغيره من الديانات، بل إن الدين قد يقوي عاملي اللغة والتاريخ وقد يضعفها كذلك، يقول: "لأن الدين يولد نوعا من الوحدة في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه ويثير في نفوسهم بعض العواطف، والنزعات الخاصة التي تؤثر في

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

أعمالهم تأثيرا شديدا، فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض وتؤثر في سير السياسة والتاريخ" (الحصري، س، 1985، 23)، وهنا يعود الحصري مرة أخرى ليستشهد بالتجربة العثمانية، فهذه الإمبراطورية لم تستطع أن تصل إلى درجة الأمة، على الرغم من أنها قامت على رابطة الإسلام، ولم تستطع أن تخلق بين شعوبها الذين كانوا منصوبين تحت لواءها شعورا بالانتماء والانسجام، بل ظل العرب في حالة اغتراب عن الدولة العثمانية، وظل المسيحيون العرب كذلك، وهذا يعني أن: "الوحدة الإسلامية مستحيلة التحقيق لأنها تضم قوميات مختلفة، أما التضامن الإسلامي فإنه واجب لأنه موقف سياسي مجرد، من أطر دستورية أو إدارية" (الحصري، س، 1985، 94).

وإلى جانب عنصر الدين رفض ساطع الحصري عاملي الاقتصاد والرقعة الجغرافية كأساسين لتحقيق الوحدة، لأن المصالح الاقتصادية قد تؤدي إلى إقامة روابط مع دول غير عربية، أما الرقعة الجغرافية فيمكن أن تكون ذريعة في يد الأقليات أو دعاة الإقليمية من أجل الانفصال وتكوين كيان خاص بهم، بالإضافة إلى ذلك فإن الرقعة الجغرافية تزيد وتنقص وتتغير بفعل عوامل معينة، لهذا لا يمكن التعويل عليها.

إن ساطع الحصري من خلال تأكيده على عاملي اللغة والتاريخ، ينحو بفكره نحو ربط عوامل قيام ونشوء الحضارات والأمم بالجانب الثقافي وهو المجال الذي برع فيه أكثر، حيث تقلد عدة مناصب تربوية وثقافية، كما كانت له إسهامات برع فيها أكثر، كما كانت له إسهامات في تطوير برامج التعليم والتربية والثقافة في عدة أقطار عربية، كسوريا والعراق ومصر، ولذلك نراه يتبنى التصور القائل بدور المحددات الثقافية في نشوء الحضارات، يقول: "إن الحضارات تشتمل الأمور المادية مثل المصنوعات اليدوية والصناعات الحديثة وغيرها، وهي نتاج الإنسان في أي مكان، ويمكن انتقال واقتباس هذه الأشياء من دولة أخرى من دون عناء، لأنها لا تحمل صفة قومية، أما الثقافة فهي تشمل الأمور الفكرية والذهنية، كالأدب والفنون واللغة، وهي مرتبطة بنمط قومي معين، لذلك فإن لكل قومية ثقافة خاصة تبعا للغتها وآدابها" (الحصري، آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، 1951)، ولذلك لا يعترف الحصر ي البتة بتسميات من مثل: الشرق الأوسط، ثقافة المشرق، ثقافة المغرب، أدب العراق، أدب سوريا ... وإنما هذه التقسيمات في رأيه ما هي إلا من المخططات الاستعمارية التي ترمي إلى تجزئة وتفتيت البلاد العربية، يقول "إننا لا نعترف بوجود الشرق الأوسط، فما هو في نظرنا إلى إستراتيجية الدول الغربية في البلاد التي يطلقون عليها اسم الشرق الأوسط" (الحصري، س، 1956، 142).

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع القومية في الفكر العربي يمكن رصد أهم النتائج في النقاط التالية:

- إن القومية فكر مركب يجمع بين ماهو إيديولوجي وعقدي ومنهجي، يهدف إلى إيقاظ الشعور العربي بحقيقة التحديات الراهنة التي ينبغي مواجهتها بالاستناد إلى مقومات الذات وإمكاناتها.

- الفكر القومي يعتقد جازما أن التغيير الحقيقي هو الذي يستثمر في مكونات الهوية من تاريخ ولغة ودين.

- العالم العربي على اختلاف مكوناته يملك إمكانات النهوض ومواجهة التحديات الراهنة، وهذا مرهون بإعادة بعث الشعور بالقومية العربية وبالانتماء للأمة وقضاياها، وخير دليل القضية الفلسطينية التي أعادت هذا الشعور وأيقظت الضمائر بالتحديات الأنطولوجية.

- ينبغي توطين مفاهيم القومية والوحدة العربية والمصير المشترك في أذهان الأجيال الصاعدة عبر البرامج التربوية.

- كل الصراعات والاضطرابات تدار تحت شعار القومية والوحدة الوطنية سواء في العالم العربي أو في المجتمعات الغربية، وما حرب أوكرانيا إلا دليل على ذلك.

- الواقع العربي المشتت والمفكك يحتاج إلى مثل هذه الأطروحات علها تسهم في إعادة إحياء الضمائر وإيقاظها لتنهض من جديد وتنخرط في حلقة التاريخ.

**

6- المصادر والمراجع

1- ألبرت حوراني. (1962). *الفكر العربي في عصر النهضة*. لبنان: دار النهار للنشر بيروت.

2- جورج أنطونيوس. (1987). *يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية* (الإصدار ط8). (ترجمة نار الدين الأسد وإحسان عباس، المحرر) لبنان: دار العلم للملايين.

3- جورج أنطونيوس. (1999). *تجديد التاريخ*. بيروت: المركز العربي للدراسات.

4- خيرية عبد الصاحب وادي. (1982). *الفكر القومي العربي في المغرب العربي*. بغداد.

5- ساطع الحصري. (1951). *آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

6- ساطع الحصري. (1951). *محاضرات في نشوء فكرة القومية*. القاهرة: مطبعة الرسالة.

7- ساطع الحصري. (1956). *دفاع عن العروبة*. بيروت: دار العلم للملايين.

8- ساطع الحصري. (1958). *العروبة أولا* (الإصدار ط3). بيروت: دار العلم للملايين.

9- ساطع الحصري. (1959). *ما هي القومية، أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، .* بيروت: بيروت، دار العلم للملايين.

10- ساطع الحصري. *آراء وأحاديث في القومية الوطنية*. بيروت: منتديات الوحدة العربية.

11- ط1 (المحرر). (1989). *عمر فروخ، تجديد التاريخ، في تعليله وتدوينه*. لبنان: دار الباحث، بيروت، لبنان.

12- عدنان محمد زرزور. (1999). *جذور الفكر القومي والعلماني* (المجلد ط3). المكتب الإسلامي.

13- عماد عبد السلام رؤوف. (1986). *تطور الفكر القومي العربين*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت .

14- محمد رجب حراز. (1970). *المدخل إلى تاريخ مصر الحديث*. القاهرة: دار النهضة العربية.

15- هادي حسن عليوي. (2000). *الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي، 1918-1956* (الإصدار ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

16- Gooch. C.P .(1931) .*Studies in modern History* .London: longman.